منهج أبي عبيد البكري في الاستشهاد في كتابه (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد)

الباحثة: د. نسرين أكرم عبيد دكتورة في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق

برتبة مدرس من عام 2017

التخصص الدقيق: مناهج البحث في اللغة والأدب

ملخّص البحث:

يعد كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد) لأبي عبيد البكري (ت 487هـ) في الكتب الجامعة لكثير من موضوعات الأدب واللغة، وقد ظهر البكري فيه باحثاً مستقصياً لا يترك المثل الذي يورده قبل أن يعالجه من جوانبه كلها: لغته، قصته، أخباره، قائله، تعدد رواياته، وغير ذلك مما قد يكون أبو عبيد القاسم بن سلام تجاوز عنه أو أخطأ فيه.

واتسم البكري في كتابه هذا بالثقافة الموسوعية والذاكرة الحافظة، الأمر الذي جعل منهجه في الاستشهاد أنموذجاً رائداً بين كتب الأمثال. فقد تنوعت مصادر شواهده بتنوع الموضوعات التي جاء عليها كتابه، ويحاول هذا البحث الوقوف على أبرز ملامح منهجه في اختيار الشواهد التي تراوحت بين القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، والأشعار والأرجاز، لنطلق حكماً ندحض فيه قول من قال إن كتاب (فصل المقال) لم يكن جهداً مستقلاً

الكلمات المفتاحية: منهج، أبو عبيد البكري، فصل المقال

Abstract

The book (Fasel al-Maqal to explain the Book of Proverbs to Abu Obeid) to Abu Obeid al-Bakri (d. 487 AH) in the books the university for many of the themes of literature and language, has appeared Bakri where researchers Mstgosaia does not leave proverb that documented before they addressed the aspects of all: his language, his story ,news, writer, multiplicity of novels, and other things that might be Abu Obeid al-Qasim ibn Salaam bypass him or made a mistake in it.

Bakri was marked in this book encyclopedic culture clipboard memory, which made its approach to cite a model pioneered between proverbs wrote. The varied sources corroborating the diversity of the topics that came upon his book, try this search stand on the most prominent features of his approach in the selection of evidence that ranged from the Koran, the Hadith, the sayings of the companions and followers, and poems and Alerjaz, to call judgment refute the words of those who say that the book (chapter the article) the effort was not independent.

مقدمة:

تعد الأمثال من المصادر المهمة في إضاءة جوانب كثيرة من حياة المجتمعات، فهي نتاج الشعب الذي حمَّلها كثيراً من أحلامه وأمانيه، وأودعها معظم تجاربه وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية.

فالنص المثلي يتمتع بخصائص جعلته بعيداً عن الشك والتحريف، اعترف بذلك عميد الأدب العربي ورائد نظرية الشك في الشعر الجاهلي، الدكتور طه حسين[1]، وهذا ما جعل الأمثال مصدراً صالحاً وموثوقاً به لدراسة أحوال الأمم ورصد تطورها.

والباحث في مصنفات الأمثال العربية القديمة يجد نفسه أمام تنوّع كبير في منهج كل كتاب منها، ويستوقفه فيها منهج البحث والتأليف وطريقة عرض العادة المثلية على مرّ القرون.

ويأتي كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد) رائداً في منهجه وتبويبه وشواهده، فقد امتزجت فيه روح المصنفين المشارقة التي اتسمت بالجدّة والأصالة بروح المصنفين المغاربة المشبعة بالبحث والتمحيص والاستقصاء، فأراد البكري لكتابه أن يكون أنموذجاً لتلك النتاجات التي دأب فيها المغاربة على شرح كتب المشرقيين المتنوعة.

التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف:

أبو عبيد البكري هو عبد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز، يرجع نسبه إلى قبيلة بكر بن عبد مناة التي كان لها شأنها بين القبائل العربية في الأندلس، وكانت ولادته في أصح الروايات عام (407)هـ، وتوفي في إشبيلية في كنف المعتمد بن عباد عام (487)هـ[2].

(1) انظر: في الأدب الجاهلي: 331.

(2) انظر ترجمته: الذخيرة 232/1.

وقد حفظت لنا كتب التراجم والفهارس أسماء كثير من كتب البكري، بعضها مطبوع، وكثير منها مفقود.

أما كتابه (فصل المقال) فيكتسب أهميته الخاصة من عاملين اثنين:

الأول: شخصية البكري الثقافية التي تشي بسعة الاطلاع وغزارة العلم وكثرة المحفوظات، فجاء كتابه هذا زاخراً بالأخبار والشواهد.

والعامل الثاني: هو تأخر البكري زمناً قياساً بأبي عبيد القاسم بن سلام – صاحب الكتاب الذي يشرحه –، فهذا التأخر مكنه من الاطلاع على كثير من كتب الأمثال التي سبقته وتلت عصر ابن سلام، فعكف على قراءتها اختياراً وتمحيصاً وموازنة.

ثمّ إنّ الطريقة التي اتبعها البكري في وضع كتابه جعلته أكثر غنىً وأعمّ فائدة، فقد حرص دوماً على ذكر المثل الذي دونه القاسم وتعليقه عليه دون أن يبتره، ثمّ يردفه بما لديه من شرح وتفسير وتعليق وتتميم نقص وتصويب خطأ.

لكنّ ذلك لا يعني أن البكري قد دوّن الأمثال جميعها التي أوردها القاسم في كتابه، بل عالج من أمثاله ما وجده منها يستحق التعليق مما اختصره ابن سلام أو بسط القول فيه.

وهذا ما يجعلنا نتأنى كثيراً قبل أن نقبل رأي (زلهايم) الذي عدّ عمل أبي عبيد البكري (جمعاً بارعاً للتعليقات الموجودة من قبل أكثر منه جهداً مستقلاً، ففضله يظهر في أنه جمع تلك التعليقات القديمة المهمة التي كتبها علماء مرموقون تحتوي على شروح نحوية ولغوية في كل متكامل سهل القراءة)[3].

(3) الأمثال العربية القديمة: 151.

إن تسليمنا برأي (زلهايم) يعني نفي جهود معظم مصنفي كتب الأمثال؛ إذ إن عملهم في معظمه قام على جمع الأمثال السائرة من أفواه الناس وتوثيقها وبيان مضربها وموردها، يضاف إلى ذلك أن البكري ضمّن كتابه أمثالاً جديدة لم تكن في كتاب أبي عبيد.

وقد صرح البكري في مقدمة كتابه بسبب تأليف الكتاب، فقال «إني تصفحت كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فرأيته قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال، جاء بها مهملة، وأعرض عن ذكر كثير من أخبارها فأوردها مرسلة»[4].

لكنّ نظرة عامة في مصنفات البكري تشي بسبب آخر غير ما ذكره في مقدمة كتابه، إنّه ولع البكري خاصة بدراسة الكتب السابقة شرحاً ومعارضة واختصاراً، يشهد على ذلك كتابه الذي شرح فيه أبيات (الغريب المصنف) لأبي عبيد القاسم بن سلام[5]، وكتاباه الآخران في شرح أمالي أبي علي القالي[6].

منهج البكري في (فصل المقال):

حدد البكري منهجه في مقدمة كتابه الذي بناه أساساً على تتميم ما جاء به أبو عبيد ناقصاً، فقال:

«فذكرت من تلك المعاني ما أشكل، ووصلت من تلك الأمثال بأخبارها ما فصل، وبينت ما أهمل، ونبهت على ما ربما أجمل، إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبتها، وأمثال جمة غير مذكورة ذكرتها، وألفاظ من الغريب فسرتها»[7].

([4]) فصل المقال: 2.

([5]) ذكره البكري في (سمط اللآلىء: 3/1)، وذكره ابن خير في فهرسته بعنوان: صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف. فهرسة ابن خير: 343.

([6]) الكتابان هما: اللآلئ في شرح أمالي القالي، حققه: عبد العزيز الميمني، والثاني: التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه، طبع مع كتاب الأمالي بدار الفكر ببيروت.

([7]) فصل المقال: 2.

وقد وفى البكري في كتابه بكثير مما وعد به في المقدمة، فأزال الغموض عن معظم المفردات الغريبة التي ذكرها القاسم دون شرح[8]، وبسط القول في الأخبار التاريخية[9]، وجمع آراء كثير من اللغويين، وفصّل في مضارب الأمثال ومواردها، ونسب معظم الأمثال إلى قائليها[10].

رتب البكري كتابه على أساس الموضوعات التي قيلت فيها الأمثال، محتذياً بذلك حذو القاسم بن سلام، فجاء كتابه في عشرين باباً رئيساً تفرع منها أبواب في معناها، وهذا التقسيم للموضوعات مكّنه من جمع عدد كبير من الأمثال زاد على ثمانمئة مثل عالجت موضوعات إنسانية مختلفة.

ومما يثبت لنا ولكل منكر أن عمل البكري في (فصل المقال) لم يكن نقلاً فحسب، بل كان إبداعاً أيضاً أنه ذكر طائفة من الأقوال والأمثال التي تقترب في المعنى من أمثال أبي عبيد[11].

والاستطراد سمة غالبة على كتاب البكري، لكن استطراداته كانت خالية من التكرار الذي شهدناه عند غيره من مصنفي كتب الأمثال، بل جاءت حافلة بالنصوص والفوائد الأدبية واللغوية[12].

([8]) انظر أمثلة لذلك: فصل المقال: 184، 185، 210.

([9]) انظر أمثلة لذلك: فصل المقال: 252، 388، 444.

([10]) من أمثلة ذلك ما جاء في: فصل المقال: 110، 217، 298.

([11]) من ذلك قوله: هو يشوب ولا يروب، وقوله سِرُّكَ أسيرك فإن نطقت به فأنت أسيره، وقوله: حلفت له بالمحرجات، وانظر أمثلة أخرى: فصل المقال: 143، 147.

([12]) انظر: فصل المقال: 67، 106.

وقد تنوعت مصادر البكري في شروحه وتعليقاته بين الكتب التي صرّح بأسماء بعض منها وأغفل ذكر أسماء بعضها الآخر، وبين الرواة من نحاة و لغويين ومفسرين ومحدثين.

منهج البكري في الاستشهاد في (فصل المقال):

تنوعت مصادر البكري في شواهده تنوعاً قلّ نظيره بين أقرانه من مصنفي كتب الأمثال، وهو أمر فرضه عليه الوفاء بمنهجه الذي وضعه لنفسه في مقدمة كتابه، فكان يستشهد على ما يذهب إليه من رأي أو شرح أو تفسير بشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين والأبيات المشهورة من الأشعار والأجاز، فجاءت شواهده في مكانها غالباً غير مقحمة ولا مفروضة في معظم الكتاب.

أولاً – شواهده من القرآن الكريم:

ولا بد لنا هنا من أن نميز القرآن مصدراً للأمثال من كونه شاهداً على شرح المثل أو تفسيره، فمعروف أن القرآن الكريم كان سبباً في استحداث كثير من الأمثال العربية التي زخرت بها مجامع الأمثال[13]، وفي الوقت ذاته كان شاهداً لا غنى للمصنف عنه في شرح كثير من مفردات الأمثال ومعانيها، أو تأكيد حكم من الأحكام اللغوية فيها.

([13]) من ذلك: (أتب من أبي لهب)، و(أقرب إليه من حبل الوريد)، و(أشرب من الهيم). انظر أمثلة أخرى في: مجمع الأمثال: 228/1، 174/2، 441/2.

وقد استشهد البكري في (فصل المقال) بآيات من القرآن الكريم على وجوه متعددة منها:

1 – تفسير كلمة من نص المثل:

وذلك كثير الورود في الكتاب، فقد فسر كلمة (الرتعة) في المثل: (القيد والرتعة)، فقال: تقول: فلان يرتع، أي إنه في خصب لا يعدم شيئاً.

ورتعت الماشية في المرعى رتوعاً إذا جاءت وذهبت كيف شاءت، وفي التنزيل {يرتع ويلعب} [يوسف: 12][14].

وذكر أبو عبيد مثلاً في إنجاز الموعد والوفاء به قول عوف بن النعمان الشيباني: لأن أموت عطشاً أحبّ إليّ من أن أكون مخلافاً لموعدة، فقال البكري معلقاً: الموعدة اسم للعدة، والموعد بلا هاء يحسن أن يكون مصدراً، قال تعالى: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه} [التوبة: 114][15].

ومثل ذلك كثير الورود في (فصل المقال)[16].

2 – تفسير مفردة من خبر المثل أو قصته:

عمل البكري على ذكر أخبار معظم الأمثال التي أوردها أبو عبيد، فوفى هذه الأخبار حقها من الشرح والتفصيل.

(14) فصل المقال: 55.

(15) نفسه: 85.

(16) انظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه: 106، 325.

فقد رُوي أن داود عليه السلام كان يسرد درعاً ولقمان عنده، قال: ما هذا يا نبي الله؟ فسكت عنه، حتى إذا فرغ داود من سردها لبسها، فعند ذاك قال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

فوجد البكري أن كلمة (السرد) التي وردت في خبر المثل تحتاج إلى تفسير، فقال: السرد سمر حلق الدرع،ويقال سرد الدرع إذا ضم حديد بعضها إلى بعض قال الله تعالى: {وقدِّر في السرد} [سبأ: 11][17]

3 – تفسير مفردة من مثل نبوي شريف:

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حين هاجر إلى المدينة مخفياً لشأنه عن قريش نزل منزلاً، فمر به قوم يؤمون مكة، ومعه أبو بكر، فقال لهما القوم: من أين أنتما؟ قال رسول الله: نحن من ماء من المياه، فقال القوم: هما من بعض مياه العرب، وإنما أراد النبي عليه السلام قوله تعالى: {فلينظر الإنسان مّم خلق، خلق من ماء دافق} [الطارق: 5]، فلحن لهم بذلك ليخفي أمره[18].

4 – شرح بيت من أبيات الأمثال السائرة:

فقد ذكر قول زهير بن أبي سلمى[19]:

وَمَنْ لاَ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فقال البكري: لم يرد بقوله (يظلم الناس) يبدأهم بالظلم، إنما يريد: من لم يحمِ نفسه من الظلم، ومن لا يعاقب ويجازِ على ظلمه بمثله لم يزل يهتضم ويظلم، فلما كان جزاءً

(17) نفسه: 37.

(18) نفسه: 5.

(19) شرح ديوان زهير: 30.

على الظلم سماه ظلماً، كما قال الله تعالى: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} [البقرة: 194][20].

ولم يكتفِ البكري هنا بإيراد شاهد قرآني واحد، بل تبعه بشواهد أخرى من القرآن تؤكد المعنى الذي ذهب إليه في تفسير بيت زهير، وتلك عادته في استيفاء المعنى بما استطاع إليه سبيلاً من الشواهد الغزيرة.

ثانياً: شواهده من الأحاديث النبوية الشريفة:

يُعدّ الحديث النبوي مصدراً أصيلاً من مصادر الأمثال العربية، فقد أُلِّفت في أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم كتب كثيرة تناولتها بالجمع والتبويب والشرح[21].

لكن الأحاديث النبوية كانت في الوقت نفسه مصدراً مهماً من مصادر الاستشهاد في الأمثال، يظهر ذلك بوضوح في (فصل المقال) من إحصاء عدد الأحاديث التي استشهد بها البكري وبلغ عددها إحدى وثمانين حديثاً.

ويمكن أن نرصد وجوهاً لشواهد البكري من كلام رسول الله، منها:

1 – تتميم نقص ما في أخبار أبي عبيد:

فقد ذكر أبو عبيد من الأمثال قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان: أنت يا أبا سفيان كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا، لكن الحدث بهذه الصورة يبدو ناقصاً دون معرفة ظروف الخبر، فجاء البكري ليورد الخبر كاملاً، فقد استأذن أبو سفيان على رسول

([20]) فصل المقال: 167.

([21]) من هذه الكتب: الأمثال من القرآن والسنة للترمذي (320هـ)، أمثال الحديث المروية عن النبي لمحمد بن خلاد الرامهرمزي (ت360هـ)، أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصفهاني (ت369هـ) رؤوس القوارير لأبي الفرج ابن الجوزي (597هـ)... وكلها مطبوعة ومحققة.

الله، فتأخر إذنه، فلما دخل عليه قال: ما كدت تأذن لي حتى أذنت لحجارة الجلهتين[22]، فقال له رسول الله عليه السلام هذه المقالة استئلافاً له[23].

وفي موضع آخر يذكر أبو عبيد قوله عليه الصلاة والسلام: وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم، فيتم البكري خبر الحديث قائلاً: إنه عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله، إنا لنؤاخذ بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟[24]

ويزخر (فصل المقال) بأحاديث كثيرة جاء بها البكري ليتمم نقصاً بدا له في أمثال أبي عبيد[25].

2 – ذكر رواية أخرى للحديث النبوي في معرض شرح الأمثال:

فقد ذكر أبو عبيد من أمثال النبي قوله: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة ههنا ومرة ههناك، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على الأرض حتى يكون انجعافها مرة»[26].

لكن البكري ذكر أن لفظ الحديث: تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ويروى: تفيئها[27]. ويتابع في شرح المثل وتفسير معناه العام والخاص.

([22]) الجلهتان: ناحيتا الوادي وحافتاه، وفي رواية أخرى: حجارة الجُلْهَمَين، والمعنى نفسه.

([23]) فصل المقال: 10، وذكره ابن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر 802/1.

([24]) فصل المقال: 18، وقد ذكر الزمخشري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل: اكْفُف عليك لسانك! فقال: يا رسول الله؛ أوإنا لمؤخوذون بما نتكلم؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب... انظر: الفائق في غريب الحديث: 287/1.

([25]) انظر أمثلة لذلك: فصل المقال: 230، 240، 264، 376، 456.

([26]) صحيح البخاري: 2009/4، كتاب المرضى: باب ما جاء في كفارة المرض، الفائق في غريب الحديث: 375/1، الخامة: الغضة، المجذية: الثابتة القائمة، الانجعاف: السقوط والانقلاع.

([27]) فصل المقال: 6، وانظر مثالاً آخر: 233.

3 – تفسير كلمة من خبر رواة الحديث:

فقد روى أبو عبيد أن عمر بن الخطاب قال: سمعني النبي صلى الله عليه وسلم أحلف بأبي، فقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فما حلفت بها ذاكراً ولا آثراً[28]، فيقول البكري: يعني أنه لم يأثر ذلك عن غيره، أي: يحكيه عنه لئلا يجري على لسانه[29].

4 – شرح مفردات بعض الأمثال النبوية:

فكثيراً ما كان أبو عبيد يذكر المثل فحسب دون أن يشرحه شرحاً عاماً يطال المعنى أو خاصاً ببعض مفرداته، بل يكتفي بذكر ما يضرب فيه المثل، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: أنا بريء من كل مسلم مع مشرك، لا تتراءى ناراهما[30]، فالمعنى العام كما ذكره البكري: أن النبي بريء من كل مسلم يوالي مشركاً[31].

وقد يكون شرح البكري خاصاً ببعض ما غمض معناه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فحين تحدث أبو عبيد عن الدنيا وزينتها ذكر حديث نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم: «وإنّ مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[32].

فقال البكري: فسره أبو عبيد ولم يبين معنى الحبط، وهو داء يصيب الماشية عن كثرة أكل الكلأ حتى تنتفخ بطونها فتمرض عنه... وقوله: أو يلم، معناه: أو يدني من الموت[33].

([28]) السنن الكبرى للبيهقي: 28/10.

([29]) فصل المقال: 6.

([30]) النهاية في غريب الحديث والأثر: 447/2.

([31]) فصل المقال: 15، وانظر أمثلة أخرى: 67، 210.

([32]) النهاية في غريب الحديث والأثر: 107/2، وروايته: أو يَغيل، أي: يهلك.

([33]) فصل المقال: 9.

5 – تفسير بعض المفردات من نصوص أمثال ليست للنبي:

فقد كان أبو عبيد يبث كثيراً من الأمثال النبوية في أثناء ذكره أمثالاً تخصّ موضوعاً إنسانياً معيناً، ولم يفرد لها باباً خاصاً بها، لكن البكري دأب على شرح تلك الأمثال النبوية بغيرها من كلام النبي حيناً، وعمل على الاستعانة بأحاديث نبوية أخرى لتفسير المثل حيناً آخر.

فذكر قول أكثم بن صيفي: رب قول أشد من صول، وشرح معنى الصول فقال: صال الرجل على قرنه يصول صولاً إذا قهره، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً[34]: اللهمّ بك أصول، وبك أحلّ، وبك أسير[35].

ومن أمثالهم في الوعيد: لألحقنّ حواقنك بذواقنك، فقال البكري: باطن الترقوتين هو الحاقنتان، وهو هراء يفضي إلى الجوف، والذاقنة طرف الحلقوم، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها[36]: «قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حاقنتي وذاقنتي»[37].

وقد يستشهد البكري بأحاديث وأخبار من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليورد قصة المثل الأولى وينسبه إلى قائله الأول، كما فعل في قول عامر بن الطفيل: «أغدةً كغدة البعير وموت في بيت سلولية؟»[38]، يضرب في اجتماع خصلتين مكروهتين، فعامر بن

([34]) مسند الإمام أحمد: 315/3، وروايته: بك أحول.

([35]) فصل المقال: 25.

([36]) النهاية في غريب الحديث والأثر: 408/2، أما رواية البخاري فعن عائشة قالت: مات النبي صلى الله عليه وسلم وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي. صحيح البخاري: 387/1 باب مرض النبي ووفاته.

([37]) فصل المقال: 488، وانظر أمثلة أخرى: 32، 310، 361.

([38]) فصل المقال: 374، ويروى بالرفع: أغدّةٌ.

الطقيل هو الذي دعا عليه الرسول عندما استخف به فأصابته غدة مرض منها والتجأ إلى بيت امرأة من بني سلول، فقال ذلك[39].

وذكر البكري في غير موضع من كتابه كثيراً من المعاني النبوية التي نظمت شعراً، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «الجار ثم الدار، والرفيق قبل الطريق»[40]. فقد أخذه أبو تمام ونظمه في مدح أحمد بن داود، فقال[41]:

بَـوَّأْتُ رَحْلِـي فـي المُـرَادِ المُبْقِـلِ وَرَتَعْـتُ فـي أَثَـرِ الغَمَـام المُسْـبِلِ

مَــنْ مُبْلِــغٌ أَفْنَــاءَ يَعْــرُبَ كُلَّهَــا أَنِّــي ابْتَنَيْـتُ الجَـارَ قَبْـل المَنْـزِلِ

وقد أورد البكري أبياتاً أخرى كثيرة نظمت هذا المعنى النبوي شعراً[42].

وكما هي عادة معظم النحويين واللغويين في الاستشهاد بالحديث النبوي على لغات العرب، ذكر البكري قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أنا من ددٍ ولا الددُ مني»[43] ليشرح كلمة (الدد) وهي اللهو، ثم قال: وفيه ثلاث لغات:

يقال: هذا دَدُ على مثال: يد ودم، وهذا دداً على مثال: قفا وعصاً، وهذا ددن على مثال: سكن ووسن[44]، ثم يورد أبياتاً كثيرة تؤيد ما ذهب إليه[45].

([39]) تعددت الروايات عن قصة المثل/ انظر بعضاً منها في: السيرة النبوية لابن كثير: 110/4.

([40]) جامع الأحاديث للسيوطي: 64/6، وفي رواية أخرى: التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق والزاد قبل الرحيل، جامع الأحاديث: 60/12.

([41]) ديوان أبي تمام: 49/3.

([42]) فصل المقال: 391، 392.

([43]) السنن الكبرى للبيهقي: 217/10، وروايته: لست من دد...، وذكر أن (دد) هو الباطل من القول والفعل.

([44]) منها للأعشى، وعدي بن زيد، فصل المقال: 394.

([45]) وكلام البكري هنا مأخوذ بالحرف عن لسان العرب (مادة ددا).

وكثيراً ما كان أبو عبيد يورد المثل غفلاً من قائله، مكتفياً بالقول: من أمثالهم في كذا، فيعمد البكري إلى نسبة المثل إلى قائله، ولا سيما إذا كان قائله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقولهم في المثل: الرغب شؤم، مأخوذ من حديث رسول الله الذي روته عائشة أن النبي اشترى غلاماً نوبياً، فألقى بين يديه تمراً فأكثر الأكل، فقال: الرغب شؤم، وردّه[46].

ولا بد للبكري هنا من أن يتذكر قوله عليه الصلاة والسلام «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب الرجل من طعامه ما أقام صلبه، فإن أبى فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس»[47][48].

ثالثاً: شواهده من أقوال الصحابة:

درجت كتب الأمثال في معظمها على صنع باب يختص بأمثال الصحابة والخلفاء الراشدين والتابعين، وقد عج (فصل المقال) بمثل تلك الأقوال التي صدرت عن أحد صحابة رسول الله ثم صارت مثلاً، أو تلك التي استشهد بها أحدهم فنسبت إليه ونُسِي قائلها الأول.

فقد أُثِر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لعمر بن الخطاب يوم صلح الحديبية: أيها الرجل! إنه لرسول الله، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه لعلى الحق[49]، وقوله هذا مأخوذ من قالة العرب: اشدد يديك بغرزه، وهو مثل يضرب في الشيء يُحضُّ صاحبه على التمسك به[50].

([46]) فصل المقال: 9، والحديث في: النهاية في غريب الحديث والأثر: 583/2، ومن المصنفين من جعله مثلاً عن بعض العرب، انظر: المستقصى في أمثال العرب: 62، جمهرة الأمثال: 32.

([47]) مسند أحمد: 119/37، وفيه: أكلات يقمن صلبه.

([48]) وانظر أمثلة أخرى في فصل المقال: 410، 411، 425.

([49]) ذكر أبو عبيد أن عمر كان كارهاً لصلح الحديبية، فقال له أبو بكر: يا عمر! الزم غرزه فإني أشهد... انظر: الأمثال لابن سلام: 27.

([50]) فصل المقال: 292.

ولما أراد البكري شرح كلمة (الحرز) في قولهم: يا حرزاً وأبتغي النوافل[51]، ساق قول أبي بكر الصديق: أحرزت نهجي وأبتغي النوافل، يريد أنه قضى الواجب من الوتر وأمن فواته وأحرز أجره، فإن استيقظ من الليل تنفّل[52].

وذكر البكري أقوالاً كثيرة تنسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، منها قوله: من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه[53]، وقوله: «لا يخلونَّ رجل بِمُغِيْبَةٍ وإن قيل حموها، ألا حموها الموت»[54].

ويؤثر عن عمر قوله لأصحابه إذا خرج من المدينة فأقام: «من بدا جفا، فرحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا»[55].

وإليه ينسب أنه قال: «إذا اشتريت بعيراً فاجعله ضخماً، فإن أخطأك خيره لم يخطئك سوقه»[56]، وهو من قولهم: «اشترِ لنفسك وللسوق»، يضرب في الاحتياط للأمر.

وأسند البكري إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أقوالاً كثيرة في مواضع مختلفة من كتابه، فقد روي عن علي أن رجلاً أثنى عليه في وجهه، فقال له علي: «أنا دون ما

([51]) الحرز: الشيء المحروز المقبوض، والمثل يضرب في الحث على اكتساب المال.

([52]) فصل المقال: 294.

([53]) نفسه: 144، وقد انفرد البكري بنسبته إلى عمر، في حين أن معظم المصادر جعلته من الحكمة دون تأكيد نسبته.

([54]) نفسه: 160، جعله ابن الجوزي في (غريب الحديث) من حديث رسول الله، انظر: غريب الحديث 245/1، وجعله الميداني من كلام عمر 6/1.

([55]) وهو من حديث رسول الله رواه أبو هريرة: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد من السلطان قرباً إلا زاد من الله بعداً» أخرجه: أحمد 297/4 والبيهقي 101/10.

([56]) فصل المقال: 309، وانظر أمثلة أخرى من أقوال عمر: 238، 401، 464، 482.

تقول وفوق ما في نفسك»[57]، وفيه إشارة إلى المثل: من حفنا أو رفنا فليقتصد، يضرب للحض على الاعتدال وعدم الإفراط.

ومن أقوال علي أيضاً: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام، ذكره البكري في باب الرجل الذي قد حنكته السن مع الحزامة والعقل[58].

ويُنْسَب إلى علي قوله في (محمد بن طلحة) الذي قُتِل يوم الجمل: ذاك الذي قتله بره بأبيه[59]، فقد ذكرت المصادر أن أباه أكرهه على الخروج للقتال في ذلك اليوم وكان كارهاً له، فلقي عائشة رضي الله عنها، فقالت: يا محمد كن كخير ابني آدم، فأغمد سيفه وكان قد سله، ثم قام حتى قُتِل[60].

رابعاً: شواهده من الأشعار والأرجاز:

حرص مصنفو الأمثال العربية القديمة على الشعر حرصهم على المثل نفسه، فاهتموا بإيراد الشواهد الشعرية الكثيرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وتعددت سبلهم في تناول تلك الأشعار بين شارحٍ لمثل ومقتبسٍ لآخر ومفسرٍ لثالث، ومُضمِّنٍ لغيره، بل إن كثيراً من المصنفين دمجوا الشعر بالنثر، على نحو ما نجده في كتب الأمثال الشعرية التي ارتبط ظهورها بظهور مصنفات الأمثال نفسها، فقد ذكر ابن النديم أن أقدم مؤلَّف للأمثال الشعرية جاء على يد: أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني ت(215هـ)[61].

وتحفظ لنا المكتبة العربية أسماء كثير من كتب الأمثال الشعرية، استطاع بعضها الوصول إلينا، وقام كثيرون بأعباء تحقيقها وإخراجها للنور، ومنها:

([57]) نفسه: 33.

([58]) فصل المقال: 155.

([59]) نفسه: 313.

([60]) الإصابة في تمييز الصحابة: 18/6.

([61]) الفهرست: 116.

– الدر الفريد وبيت القصيد، لمحمد بن سيف الدين أيدمر (ت710هـ)[62].

– الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر، لحمزة بن الحسن الأصبهاني (ت351هـ)[63].

– الأمثال والحكم، لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت 691هـ)[64].

وقد أكثر البكري في (فصل المقال) من الاستشهاد بالأشعار والأرجاز، حتى ليظن الباحث نفسه أمام موسوعة للشعر العربي في عصوره المختلفة، فقد ذكر أبو عبيد معظم أبياته دون نسبة، أو أخطأ في نسبتها أحياناً، حتى بلغ عدد الأبيات التي استشهد البكري بها سبعمائة بيت.

ومما يلفت النظر في شواهد البكري الشعرية أنه كان شديد الإعجاب بأبي الطيب المتنبي وكانت كلماته تشي بما يكنه لهذا الشاعر من تقدير وحب وإعجاب، فمرة يقول: قال شاعر عصره، ومرة يقول: قال فأحسن، أو قال: فأجاد[65]، ولم يؤثر عن البكري مثل هذا الوصف في شاعر آخر غير المتنبي.

ويمكن أن نجعل ورود الشواهد الشعرية في (فصل المقال) على النحو الآتي:

1 – استشهد بالأبيات التي تضمنت معنى المثل، أو جاءت موافقة في معناها لمعنى المثل:

([62]) طُبع بعناية الدكتور: فؤاد سزكين في خمسة مجلدات واثنين للفهارس، نشره: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت 1988.

([63]) حققه د. أحمد بن محمد الضبيب، دار المدى الإسلامية، 2005م.

([64]) هو نفسه صاحب مختار الصحاح، والكتاب من تحقيق: فيروز حريرجي، طبعته المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق عام 1997م.

([65]) انظر: فصل المقال: 144، 164.

فقد أورد أبو عبيد قولهم كلا جانبي هرشى لهن طريق، وهو مثل يضرب للأمر إذا سهل من وجهين، فقال أبو عبيد: قال الشاعر في مثل هذا:

خُـذَا وَجْـهَ هَرْشَــى أَوْقَفَاهَــا فَإِنَّــهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيْقُ[66]

ولم ينسب البكري هذا البيت إلى قائله، مع أنه أخذ على أبي عبيد عدم نسبته الأبيات التي استشهد بها.

وفي موضع آخر ذكر أبو عبيد قولهم: لو ذات سوار لطمتني، وهو مثل يضرب للكريم يظلمه الدنيء الخسيس، ولم يزد البكري على ما قال أبو عبيد إلا أبياتاً للفرزدق في المعنى عينه[67]:

وإِنَّ حَرَامــاً أَنْ أَسُــبَّ مُقاعِسَــاً بِآبَــائِي الشُّــمِّ الكِــرَامِ الخَضَــارِمِ
أُولَئِــكَ أَحْلاَسِــيْ فجِئْنِــي بِمِــثْلِهِمْ وَأَعْبُــد أَنْ أَهْجُــو عَبِيْــدَاً بِــدَارِمِ
وَلَكِــنّ نَصْــفَاً لَوسَــبَبْتُ وَسَــبَّنِي بَنُــو عَبــدِ شَــمْسٍ مِــنْ مُنَــافٍ

2 – استشهد بالأبيات التي نظمت في الأمثال:

فمن ذلك أن أبا عبيد ذكر قولهم: لا تكن كالعنز تبحث عن المدية، فقال البكري: نظم هذا المثل أبو الأسود الدؤلي، فقال[69]:

فَــلاَ تَــكُ مِثْــلَ التــي اسْــتَخْرَجَتْ بِأَظْلاَفِهَــا مُدْيَــةً أَوْ بِفِيْهَــا
فَقَــامَ إِلَيْهَــا بِهَــا ذَابِــحٌ وَمــن تَــدْعُ يَوْمَــاً شَــعْوبٌ يَجِيْهَــا

وذكر البكري أبياتاً أخرى للفرزدق في المثل نفسه، منها قوله[70]:

([66]) نفسه: 384، والبيت بلا نسبة في لسان العرب (هرش)، وهرشى: ثنية في طريق مكة يرى منها البحر.

([67]) ديوان الفرزدق: 606، والبيت الثاني ليس في الديوان، وقد جاء فيه: وليس بعدل إن سببت.... ولكن عدلاً لو سببت وسبني..

([68]) فصل المقال: 381.

([69]) فصل المقال: 451، والبيتان في ديوانه: 22.

فَكَـانَ كَعَنْـزِ السُّـوءِ قَامَـتْ بِظِلْفِهَـا إلـى مُذْيَـةٍ تَحْـتَ الثَّـرى تَسْـتَثِيرُهَا

وقال أيضاً[71]:

رَأَيْـتُ ابْـنَ دِيْنَـارٍ يَزِيْـدَ رَمَـى بِـهِ إلـى الشَّـامِ يَوْمِ العَنْـزِ واللهُ شَـاغِلُهْ

بِعُـذرَاءَ لَـمْ تَـنْكِحْ حَلِـيْلاً وَمَـنْ تَلـجْ ذِرَاعَيْـهِ تَخْـذُلْ سَـاعِدَيْهِ أَنَامِلُـهْ[72]

ويوم العنز مثل يضرب لمن جلب حينه على نفسه.

وفي موضع آخر أورد أبو عبيد قولهم: كُلُّ مُجْرٍ في الخلاء يُسَرُّ، وهو مثل يضرب لمن ادعى فضلاً وليس عنده ما يقابله، وأصله أن الذي يجري فرسه في المكان الخالي فهو يسر بما يرى منه، فذكر البكري بيتاً للمتنبي نظم فيه هذا المثل بأحسن لفظ، فقال:

وإِذَا مَـــا خَـــلاَ الجَبَـــانُ بِـــأَرْضٍ طَلَـبَ الطَّعْـنَ وَحْـدَهُ وَالنِّـزَالاَ[73]

وذكر أبو عبيد قولهم: إنك لتشكو إلى غير مصمت، وهو مثل يضرب في قلة عناية الرجل واهتمامه بشأن صاحبه، فيورد البكري أبياتاً عدة في المثل نفسه، لكنه لم ينسب واحداً منها إلى صاحبه، خلافاً لما كان تعهد به في مقدمة الكتاب، والأبيات هي:

وَلاَ بُـدَّ مِـنْ شَـكْوَى إِلَـى ذِيْ حَفِيْظَـةٍ يُوَاسِـــيْكَ أَوْ يُسْـــلِيْكَ أَوْ يَتَفَجَّـــعُ

وقول الآخر:

وَلاَ بُـدَّ مِـنْ شَـكْوَى إِلَـى ذِيْ حَفِيْظَـةٍ إِذَا جَعَلَـتْ أَسْـرَارُ نَفْسِـي تَطَلَّـعُ[74]

([70]) ديوان الفرزدق: 178، وروايته: وسط التراب تثيرها.

([71]) ديوان الفرزدق: 349، وهما من قصيدة طويلة يمدح بها سليمان بن عبد الملك، ويزيد هو يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه، ورواية الديوان: رأيت ابن ذبيان... إلى الشأم.

([72]) فصل المقال: 455.

([73]) فصل المقال: 204، والبيت في شرح ديوان المتنبي: 262/3.

([74]) البيت لبشار بن برد في ديوان المعاني للعسكري: 57.

وقال الشاعر فنظم المثل:

إِنَّـــكَ لاَ تَشْـــكُو إِلـــى مُصْـــمِتٍ فَاصْـبِرْ علـى الحِمْـلِ الثَّقِيْـلِ أَوْ

3 – استشهد بأبيات جرت مجرى الأمثال:

فمن ذلك المثل الذي أورده أبو عبيد: ما أشبه الليلة بالبارحة، فذكر البكري أن أول من قال هذا المثل هو طرفة بن العبد حين كتب عمرو بن هند بقتله إلى عامله في البحرين، فقال:

كُـــلُّ خَلِيْـــلٍ كُنْـــتُ خَالَلْتُـــهُ لاَ تَـــرَكَ اللهُ لَـــهُ وَاضِـــحَةْ

كُلُّهُـــمْ أَرْوَغُ مِـــنْ ثَعْلَـــبٍ مَـــا أَشْـــبَهَ اللَّيْلَـــةَ بِالبَارِحَـــة[76]

لكن محقق الديوان ذكر هذين البيتين مع ثالث قبلهما، وقال إن طرفة نظمها عندما سجن ذات مرة، فطلب النجدة من أصحابه فخذلوه، فلامهم[77]، وهذا بخلاف ما أثبته البكري في (فصل المقال).

وذكر أبو عبيد من أمثال العرب قولهم: تُقَطِّعُ أعناقَ الرجالِ المطامعُ، يضرب في الطمع والشجع، فقال البكري: هو عجز بيت من شعر البعيث، أوله:

طَمِعْـــتُ بِلَيْلَـــى أَنْ تُرِيْـــعَ وإِنَّمَـــا تُقَطِّـعُ أَعْنَـاقَ الرِّجَـالِ المَطَـامِع[78]

وقد يذكر البكري بيتاً واحداً يضم أكثر من مثل، كقول النابغة الذبياني:

الرِّفْـــقُ يُمْـــنٌ والأَنَـــاةُ سَـــعَادَةٌ فَاسْـتَأْنِ فـي رِفْـقٍ تُـلاَقِ نَجَاحـاً[79]

([75]) الراجز هنا يخاطب جملة، وفي رواية أخرى: اصبر على الداء الدوي. انظر: غريب الحديث: 616/1.

([76]) فصل المقال: 227.

([77]) ديوان طرفة: 19.

([78]) فصل المقال: 408، والبيت في تاج العروس: ريع، والريع هو النماء والزيادة والخصب.

([79]) البيت ليس في ديوان النابغة، وقد ذكره ابن رشيق: العمدة: 192/1.

فقوله (الرفق يمن) مثل، و(الأناة سعادة) مثل ثان، و(استأن في رفق) مثل ثالث[80].

ومثل ذلك في قول زهير:

وَفِيْ الحِلْمِ إِدْهَانٌ، وَفِي العَفْوِ دُرْبَةٌ وَفِي الصِّدْقِ مَنْجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ

4 – استشهد بأبيات في شرح غريب اللغة مما ورد في الأمثال:

فقد كان من عادة المصنفين أن يشرحوا الشعر بالشعر، والشعر بالمثل، والمثل بالشعر، فيدللون على معاني مفردات الأمثال بأبيات ضمَّت تلك المفردات، فمن ذلك ما ذكره أبو عبيد من أمثال العرب في النكاح: على بدء الخير واليمن، ومنه قولهم: بالرفاء والبنين، فشرح البكري معنى (الرفاء) بقوله: الموافقة، ودلل على صحة هذا المعنى بقول الشاعر:

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ أَبَا رُوَيْمٍ يُرَافِيْنِي وَيَكْرَهُ أَنْ يُلاَمَا[82]

وذكر بيتاً آخر لأبي خراش:

رَمُوني وَقَالُوا: يَا خُوَيْلِدُ لاَ تُرَعْ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الوُجُوَهَ: هُمُ هُمُ[83]

وبعض اللغويين جعل هذا المعنى في البيت أصلاً للمثل المذكور، فهو دعاء بالسكون والطمأنينة[84].

([80]) فصل المقال: 328.

([81]) نفسه: 329، والبيت في الديوان: 72.

([82]) البيت في اللسان: رفا.

([83]) فصل المقال: 82، والبيت في ديوان الهذليين: 144/2، هم هم: أي هم الذين كنت أخاف.

([84]) زهر الأكم في الأمثال والحكم: 74/1.

ويقولون في المثل: طويت فلاناً على بلاله، وبلوله، وبللته، أي: احتملت منه إساءته وأذاه، فنقل البكري قول ابن دريد: طويت فلاناً على بللته إذا طويته على ما فيه من عيب[85]، ثم استشهد بقول الشاعر:

طَوَيْنَا بَنِي بِشْرٍ عَلَى بَلاَلَتِهِمْ وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ لِقَاءِ بَنِي بِشْرِ[86]

وأنشد آخر:

وَلَقَدْ طَوَيْتُكُمُ عَلَى بَلاَلَتِكُمْ وَعَرَفْتُ مَا فِيْكُمْ مِنَ الأَذْرَابِ[87]

5 – وصل الأبيات التي استشهد بها القاسم بن سلام:

فكثيراً ما نقرأ في (فصل المقال) قول البكري: وقبله بيت كذا، أو: بعده بيت كذا، إذ إنيوضع البيت في سياقه من القصيدة يفترض به أن يقرب المعنى ويوضح صورة المثل الذي يشرحه، فمن ذلك ما أنشده أبو عبيد للفرزدق:

فَلاَ تَأْمَنَنَّ الحَرْبَ إنَّ اسْتِعَارَهَا كَضَبَّةَ إذْ قَالَ: الحديثُ شُجُونُ[88]

فقال البكري وقبله:

وَإِنْ كُنْتَ قَدْ سَالَمْتَ دُونِي فَلاَ تُقِمْ بِأَرْضٍ بِهَا بَيْتُ الهَوَانِ يكونُ[89]

والمثل المشار إليه في بيت الفرزدق الأول هو قولهم: الحديث ذو شجون، يُضرب للحديث يُسْتَذْكَرُ به حديثٌ غيره، وضبة المذكور هو ضبة بن أد. وقصة المثل طويلة متشعبة، ذكرها المفضل الضبي مفصلة في (أمثاله)[90].

([85]) فصل المقال: 231.

([86]) اللسان: بلل، والبيت بلا نسبة في تاج العروس، والصحاح.

([87]) نسبه صاحب اللسان إلى حضرمي بن عامر الأسدي. انظر اللسان: بلل. والأذراب: المفاسد وسوء الخلق.

([88]) ديوان الفرزدق: 631، 632، ورواية الديوان: إن اشغارها... وهو: الاتساع والاشتداد.

([89]) رواية الديوان: فلا تقم بدارٍ بها بيت الذليل يكون.

([90]) انظر: أمثال العرب: 47.

ولكننا نرى هنا أن البكري إنما ذكر البيت السابق للفرزدق لاستعراض ما لديه من مخزون ثقافي أكثر من كون البيت وثيق الصلة بالذي بعده.

ويؤكد رأينا هذا ما ساقه أبو عبيد من قول زهير بن أبي سلمى.

فَضْلَ الجِيَادِ عَلَى الخيلِ البِطَاءِ وَلاَ يُعْطِيْكَ ذَلِكَ مَمَنوعاً ولا نَزِقَاً[91]

فقال البكري: وقبله البيت:

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا ما كذَّب اللَّيثُ، عن أقرانِهِ، صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ، ما ارتموا، حتى إذا اطَّعَنُوا ضَارَبَ، حتَّى إذا ما ضَارَبُوا

إذ إنَّ نظرة إلى ديوان زهير تثبت أنَّ البيتين الأخيرين وردا في القصيدة المذكورة بعد البيت الأول، والأغلب أن البكري يحفظ هذه القصيدة فذكر منها أبياتاً تثبت سعة محفوظه واتساع ثقافته.

وفي موضع آخر أنشد أبو عبيد للحطيئة قوله[93]:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لاَ يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ

فذكر البكري صلة البيت، وهو من شعر يقوله في هجاء الزبرقان.

لَمَّا بَدَا لي مِنْكُمْ عَيْبُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحي فِيْكُمُ آسِ

أَزْمَعْتُ يَأْساً مُرِيْحَاً مِنْ نَوَالِكُمْ وَلَنْ تَرَى طَارِدَاً لِلحُرِّ كاليَاسِ[95]

([91]) ديوان زهير: 76، والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان، ورواية الديوان: فلا يعطي بذلك ممنوناً، والمعنى: إن هرم يفضل الناس كما تفضل الجياد السريعة البطيئة.

([92]) ديوان زهير: 77، عَثَّر: موضع بين اليمن ومكة معروف بثرة الأسود، ومعنى البيت: إن الممدوح في الجرأة والإقدام على الأقران كالليث، ويزيد عليهم في ل حال من أحوال الحرب.

([93]) فصل المقال: 246.

([94]) ديوان الحطيئة: 120.

([95]) نفسه: 118، ورواية الديوان: حتى إذا ما بدا لي غَيْبُ.

ثم يورد نحو خمسة أبيات أخرى قبل أن يصل إلى بيت أبي عبيد.

والملاحظ هنا أيضاً أن إيراد البكري للأبيات الستة السابقة للبيت المذكور لم يكن ذا قيمة كبيرة فهم المعنى، والدليل على ذلك أن البيت الذي ذكره أبو عبيد مشهور بنفسه، ولا يحتاج إلى صلته بأبيات القصيدة السابقة عليه أو اللاحقة بعده لفهم معناه.

نظرة في منهج البكري في الاستشهاد:

كان هدف البكري من كتابه (فصل المقال) إزالة الغموض عن المفردات الغريبة التي وردت في كتاب القاسم بن سلام، وإزالة اللبس والإبهام عن بعض أمثاله، وتوضيح بعض الجوانب التاريخية للأمثال من أنساب وأخبار وقصص، أملاً في أن يقدم صورة واضحة لأبناء عصره وبيئته عن الأمثال التي قيلت في الجاهلية في معظمها، وتأخر تدوينها إلى ما بعد القرن الأول الهجري.

ومما يمكن للمرء أن يسجله هنا في تناول البكري للشواهد ما يأتي.

1 – اعتنى البكري عناية فائقة بقائلي الأمثال، فكلما مر بمثل لم ينسبه القاسم بن سلام نسبهُ إلى قائله، وذلك كثير في كتابه[96]، وكذا حاله مع الشواهد الشعرية التي زخر بها كتابه، لكننا مع ذلك لا نعدم مواضع كثيرة خرج فيها البكري على منهجه الذي تعهد فيه بنسبة الأبيات إلى أصحابها، لا سيما تلك التي ذكرها أبو عبيد غفلاً من النسبة.

والحق يقال: إن البكري لم يترك بيتاً شعرياً ذكره القاسم من غير أن ينسب إلا نسبه البكري إلى قائله، لكنه ذكر أبياتاً أخرى كثيرة من استشهاده دون نسبة، فكأنه وقع فيما لام أبا عبيد فيه[97].

(96) انظر: فصل المقال: 143، 200، 210، 217، 204، 460.

(97) المصدر نفسه: 204، 231.

وليس ذلك مما يقدح في الكتاب أو في مؤلفه؛ ذلك أن معظم الأبيات التي ذكرها غفلاً من النسبة لم تنسب أيضاً إلى قائليها في معظم كتب اللغة والمعاجم، كاللسان والصحاح وتاج العروس...

2 – اهتم البكري اهتماماً كبيراً بذكر سند الشاهد إذا كان من الحديث النبوي الشريف[98]، ولكن ثمة مواضع قليلة أغفل فيها تتبع سند الحديث إذا كان مما استشهد به أبو عبيد[99]، وبعضها مما استشهد به هو نفسه[100].

3 – اعتمد البكري على حفظه وما اختزنته ذاكرته من معلومات أعانته على التأليف، إضافة إلى ما نقله من مصادر اللغة والأدب، لكن هذه الذاكرة الحافظة خانته في بعض المواضع القليلة باعترافه هو نفسه.

ومن هذه المواضع القليلة جداً ما ورد في تعليقه على المثل: عد القارص فحزر، يضرب لتفاقم الأمر واشتداده وبلوغه غاية الجهد[101].

فقال البكري معلقاً: أصل هذا المثل قول الراجز، والراجز معلوم لكني لا أذكره الآن:

يا عمر بن محرم لا منتظر بَعْدَ الّذي عَدا القَرُوص فَحَزِّر[102]

لكن البكري فاته أنه قد ذكر هذا الرجز من قبل شاهداً على شرح (حزر) في باب الرجل يعد بالصدق ثم يحتاج إلى الكذب[103]، وقد عزا محقق (فصل المقال) نسيانه له

([98]) من مواضع ذلك في فصل المقال: 6، 11، 12، 18، 150.

([99]) انظر نفسه: 6، 17، 25، 32.

([100]) نفسه: 27، 95.

([101]) الأمثال لابن سلام: 65.

([102]) فصل المقال: 470، والبيت في ديوان العجاج: 18، وفي جمهرة الأمثال: 130/2.

([103]) فصل المقال: 54.

إلى أنه ربما بدأ بالتعليق على هذا الباب قبل الباب المشار إليه، وهناك عثر على القائل، فأثبته[104]، وهو: العجاج.

أما اعتماده على حفظه فكثير وأكثر من أن يحصى في كتابه، فقد ذكر أبو عبيد من أمثال العرب في اليأس من الحاجة والرجوع عنها قولهم: أسائر اليوم وقد زال الظهر، فقال البكري: هكذا أورد أبو عبيد المثل على أنه لفظ منثور، وإنما أحفظه شطرين موزونين، قال:

أَسَـــائِرُ اليَـــوْمَ وَقَـــدْ زَالَ الظُهُـــرْ دُوْنَك فَارْبَعْ إِنَّ ذَا سَيْرٍ نُكُرْ[105]

لكنّ البحث في مصادر الأشعار لا يقودنا إلى الأمر الذي أقره البكري من أن المثل منظوم لا منثور، فقد انفرد هو وحده (فيما رجعنا إليه من المصادر) بجعله شطرين موزونين، فمرة أخرى إذاً تخونه ذاكرته، فضلاً عن كونه خالف منهجه عندما لم ينسب البيت إلى قائله.

ولعلنا نستنتج من ذلك أن البكري قد ألف كتابه في آخر حياته وقد تقدمت به السن حتى صار النسيان يطرق ذاكرته بين الحين والآخر بعد أن اكتسب علماً جماً وثقافة واسعة.

4 – صبَّ البكري جلّ اهتمامه على تصويب كثير من الأخطاء التي رأى من وجهة نظره أن أبا عبيد وقع فيها، ولاحقه في معظم تلك المواضع، لا سيما ما تعلق منها بالشواهد، فإن أوجز أبو عبيد عتب عليه البكري، وإن استطرد لامه أيضاً، بل إننا نكاد نشم رائحة الغضب تنبعث من بعض تعليقاته عليه.

فمن ذلك أن أبا عبيد نسب البيت الآتي إلى عثمان بن عفان:

فتـىً كـانَ يُدنِيـهِ الغِنَـى مـن صَـدِيقِهِ إذا مـا هـو اسـتغنى ويُبعـدُهُ الفقـرُ

([104]) نفسه: 470، حاشية المحقق.

([105]) نفسه: 354.

فقال البكري: كيف جهل أبو عبيد أن هذا البيت من شعر الأبيرد اليربوعي، وهو أشهر في الناس من أن يجهله أحد، فكيف يجهله أحد الجلة من العلماء بفنون العلم؟[106].

ولا بد لنا هنا من أن نقف عند هذا البيت، وننظر فيه، إذ إن أبا عبيد لم يؤكد نسبة البيت إلى عثمان بن عفان كما اتهمه البكري في كتابه، بل قال: «وهذا البيت يقول بعضهم إنه لعثمان بن عفان، وقال بعضهم لغيره»[107].

إذاً فأبو عبيد لم ينسبه إلى عثمان حكماً قاطعاً، بل قال: إنه قد يكون لغيره، في حين أن ما نقله البكري في (فصل المقال) يؤكد نسبته إلى عثمان رضي الله عنه.

ثم إن البكري أكد نسبته إلى الأبيرد اليربوعي (ت68هـ)، في حين أن معظم المصادر الأدبية قد نسبت البيت إلى سلمة بن يزيد الأشجعي من قصيدة طويلة يرثي فيها أخاه لأمه: قيس بن سلم[108]، وجميع تلك المصادر متفقة على أن عليّ بن أبي طالب قد تمثَّلَ به في طلحة بن عبيد الله يوم رآه في قتلى الجمل.

5 – اعترض البكري في كثير من المواضع على أبي عبيد في تفسيره بعض الأمثال وبيان معاني مفردات كثيرة، لكننا لا نستطيع أن نقبل من البكري كل ما اعترض به على القاسم، لا سيما ما تعلق بالشواهد من كلامه.

فقد فسر أبو عبيد كلمة (الدخن) من قوله صلى الله عليه وسلم: «هدنة على دخن وجماعة على أقذاء»، بقوله: وإن الدخن إنما هو مأخوذ من الدخان[109]. لكن البكري

([106]) فصل المقال: 291.

([107]) الأمثال لابن سلام: 37.

([108]) من هذه المصادر: ديوان الحماسة: 449/1، سمط اللآلي: 205/1.

([109]) أمثال ابن سلام: 35.

اعترض على هذا التفسير، فقال: الدخن ليس في معنى الدخان كما قال أبو عبيد، وإنما الدخن فسد في القلب عن باقي عداوة[110].

ولم يكن البكري هنا منصفاً في رفضه تفسير أبي عبيد، لأن الأخير أخذ معنى من تلك المعاني العديدة لهذه المفردة التي يحتملها المثل، فقد جاء في (العين): «دخن الغبار وخوفاً: سطع... والدخنة من لون الأرض، وهو كدرة في سواد كالدخان... وفي الحديث: هدنة على دخن، أي: صلح واستقرار على أمور مكروهة»[111].

وجاء في اللسان: «الدخن، بالتحريك، مصدر دخنت النار تدخن إذا ألقي عليها حطب رطب وكثر دخانها، وفي حديث الفتنة: هدنة على دخن...» [112].

وثمة مواضع أخرى في الكتاب نلحظ فيها اعتراضات البكري النحوية على رواية القاسم بن سلام بعض الأمثال[113]، وأخرى صرفية مما يتعلق بالأوزان والإدغام والقلب والإعلال والإبدال وغيرها[114].

6 – حرص البكري على التوسع والاستقصاء في اختيار شواهده من القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والرجز، حتى إننا لا نكاد نقف على مثلٍ عالجه دون أن يشفع رأيه بكثير من الشواهد والأخبار، بل إنه كان يذكر الروايات المختلفة للشاهد الواحد، لا سيما إذا كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم[115].

([110]) فصل المقال: 8.

([111]) العين: 232/4.

([112]) اللسان: دخن.

([113]) من هذه المواضع: فصل المقال: 147، 392، 486.

([114]) من أمثلة ذلك ما ورد في: 84، 169، 431، 337.

([115]) انظر: فصل المقال: 7، 11.

كما إنه يذكر اختلاف الرواية في الشواهد الشعرية[116]، ولكن ذلك لم يكن أمراً مطرداً في كتابه كله، فثمة بعض المواضع التي تجاوزها دون أن يشير إلى اختلاف الرواية[117].

وقد بلغ به ولعه بالاستقصاء حداً بعيداً، فقد كان يتحرى عن المناسبة التي نظم فيها الشعر، وفي ذلك ما يقرب الشعر من أذهان المتلقين[118].

فالبكري إذن استطاع أن يقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً ليس منقولاً عن كتاب (الأمثال) للقاسم بن سلام، بل هو موسوعة للآراء النحوية واللغوية والشواهد النثرية والشعرية، فضلاً عن أنه أنموذج رائد في منهجية التأليف التي قامت على دقة التبويب وشمولية البحث.

([116]) نفسه: 126، 271.

([117]) أشرت إلى اختلاف الرواية التي ذكرها عن رواية الديوان في موضعه من هذا البحث.

([118]) فصل المقال: 84، 246، 252، 266.

المصادر والمَراجع

- القرآن الكريم.
1- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ.
2- أمثال العرب، المفضل الضبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، (1401هـ - 1981م).
3- الأمثال العربية القديمة مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد، رودلف زلهايم، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار الأمانة، بيروت، ط1 (1391هـ - 1971م).
4- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت، 1965م.
5- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، أبو عبيد البكري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2 (2000م).
6- جامع الأحاديث، جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
7- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، (1408هـ - 1988م).
8- ديوان أبي تمام الطائي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1957.
9- ديوان الحطيئة، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، (1426هـ - 2005م).
10-ديوان الحماسة، تأليف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، برواية: أبي منصور بن الخضر الجواليقي، شرحه، وعلق عليه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1418هـ - 1998م).

11-ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط2، 1975م.

12-ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1407هـ-1987م).

13-ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1414هـ-1994م).

14-ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، (1403هـ-1983م).

15-ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

16-ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1995م.

17-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (1398هـ-1978م).

18-سمط اللالئ، أبو عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (1354هـ-1936م).

19-السنن الكبرى، أحمد بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط3، (1424هـ-2003م).

20-شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة السعادة، مصر، ط2، (1357هـ-1938م).

21-شعر زهير بن أبي سلمى صفة الأعلم الشنمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، (1400هـ-1980م).

22-الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، 1986م.

23-صحيح البخاري، ضبطه ووضع فهارسه د. مصطفى ديب البغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ط2، 1993م.

24-العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972م.

25-العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح قيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد 1980م.

26-غريب الحديث، أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1985.

27-الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت لبنان، (1414هـ-1993م).

28-فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة بيروت (1391هـ-1971م).

29-الفهرست، ابن النديم، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.

30-فهرسة ما رواه عن شيوخه، ابن خير الإشبيلي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، (1399هـ-1971م).

31-في الأدب الجاهلي، طه حسين، دار المعارف، القاهرة ط1، (1389هـ-1969م).

32-كتاب الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط1 (1400هـ-1980م).

33-لسان العرب، ابن منظور الافريقي، دار صادر، بيروت، لبنان 1965.

34-مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2 (1407هـ-1987م).

35-المستقصى في أمثال العرب، جار الله بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، (1408هـ-1987م).

36-مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد شاكر دار المعارف، القاهرة 1313هـ.

37-النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2 (1399هـ-1979م).